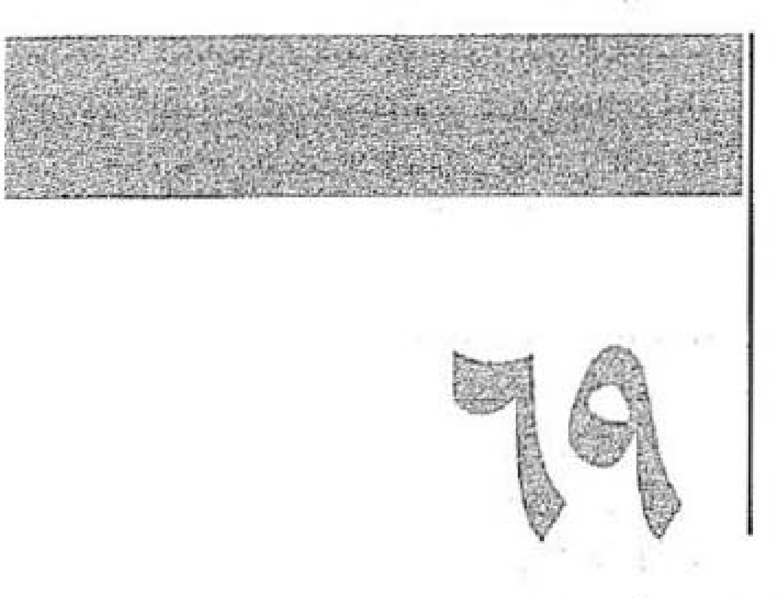
ملف العدد



إدوارد سعيد والاستشراق

يورغن سيمونسِن (*)

في البداية اسمحوا لي أن أعبر عن امتناني لمؤسسة الشجرة للذاكرة الفلسطينية لدعوتي لتقديم شهادة في إطار هذا الملتقى الفكري المكرس لذكرى إدوارد سعيد. وإنه لشرف لي أن أقول بضع كلمات في هذه المناسبة.

لم تسنح لي الفرصة قط للقاء إدوارد سعيد شخصياً. حيث إنني خلال عام ١٩٩٠ كنت مديراً لمؤسسة كارستن نيبور لدراسات الشرق الأدنى في جامعة كوبنهاغن، وكنت أيضاً

(*) يورغن سيمونسِن: مدير المعهد الدانماركي بدمشق

مسؤولاً بنفس الوقت لقسم المبادرات الخاصة المكرس لإنجاز دراسات علمية للشرق الأوسط المعاصر الذي يعمل برعاية مجلس البحث الدانماركي للإنسانيات وقد نظمت سلسلة من المؤتمرات الدولية ودعونا عدداً من الدارسين العرب كي يحضروا للدانمارك ليقدموا أعمالهم العلمية وليطوروا الأعمال المنجزة من البحاثة الدانماركيين حول الشرق الأوسط.

وكما أنكم جميعاً حذرون في هذا العالم المعاصر حيث الحدود التقليدية بين الزمان والمكان قد انهارت. فإنّ النتيجة هي أنك تلتق عربيًا في كل أنحاء العالم. وبفعل القرارات المتخذة من آخرين فإنك تلتقي بفلسطينيين في كلّ أنحاء العالم أيضًا، وهكذا فقد دعونا عدداً من الباحثين العرب إلى الدانمارك في عام ١٩٩٠ كانوا يعيشون خارج العالم العربي وكثير منهم كانوا فلسطينيين يعيشون في مختلف دول أوروبية. رغم أنّ معظمهم يعيش في الولايات المتحدة.. وكان من أكثر البحاثة الفلسطينيين (أهمية) الذين دعوناهم عدة مرات هو د. إدوارد سعيد. ولم نكن نسعى لدعوته إلى الدانمارك بحكم معرفتنا لمعاناته لسنوات عدة من مرض السرطان ومعرفتنا أن قضيته الطبية كانت تواجه دائمًا عمل مؤتمراتنا.

لقد فقدت الأمل في لقاء إدوارد سعيد شخصيًا. ولكن في إطار صلاحياتي كمدير للمؤسسة الدانماركية في دمشق فقد أمنت (منحة) من قبل وزارة الخارجية الدانماركية لتنظيم مؤتمر دولي حول الشرق الأوسط بعد غزو العراق. واستناداً لذلك أرسلت رسالة إلكترونية e-mail إلى الدكتور إدوارد سعيد في أوائل تموز من هذا العام أدعوه فيها للحضور إلى دمشق لتقديم محاضرة عن الأوضاع السياسية الراهنة في الشرق الأوسط ومستقبل الفلسطينيين.

بعد ذلك بعدة أيام تسلّمت جوابًا من د. إدوارد سعيد أبدى فيه اهتمامه الكبير بالمؤتمر. ووجد أنّ الباحثين المشاركين قد جرى اختيارهم بشكل جيد ويتمتعون بكفاءة عالية وعبر عن أمله ونيته بزيارة سورية في وقت ما مستقبلاً. وتمنى للمؤتمر النجاح وأنهى رسالته بالجملة التالية:

(إن رزنامتي «جدول أعمالي» للخريف قد أصبحت تحتمل أكثر مما تطيق)

بالطبع كنت حزينًا وأنا أقرأ الرسالة، ولكننا جميعًا نعلم أنّ بعض الباحثين لديهم أشياء كثيرة ليفعلوها. ولهذا قبلت اعتذاره، وكذلك تمنياته للمؤتمر بالنجاح.

وعندما علمت بوفاته بعدها ببضعة أشهر صعقت مثل الآخرين، وفورًا استعدت آخر جملة في رسالته التي أرسلها لي أوائل تموز مع الجملة.

(إنّ رزنامتي «جدول أعمالي» للخريف قد أصبحت تحتمل أكثر مما تطيق)

لقد انتهت حياته في عمر الشباب وكنّا جميعًا نعلم أنّه سوف يتوفى. وكذلك نحن كلنا سنموت. إلا أنه ومع تقديرنا لهذا فإن وفاته كانت شيئًا لايمكن تجنبه. وبمواجهة

هذا فإنّ ردود أفعالنا ستبرز بأشكال مختلفة.

كتبت لي صديقة رسالة إلكترونية بعد عدة أيام من وفاة د. سعيد تضمنت التالي:

لماذا يموت إدوارد سعيد في عمر الـ ٦٧ بينما مايزال برنار لويس حيًا في عمر ٨٧؟.

وأنا أعلم أن صديقتي تعرف تمام المعرفة أنها لاترغب في موت أحد.

ولكن تعبيرها هذا جعلني أفكر في أهمية إدوارد سعيد،، وكيف أننا جميعًا سنفتقده في الحالة الراهنة. وفي الغرب حيث يتم بشكل متزايد إغرا ق للسوق بالكتب ذات المحتوى النقدي لكتاب إدوارد سعيد (الاستشراق) المطبوع عام ١٩٧٨.

فقد أصبح هذا الكتاب أيقونة. كتاب يجب على كل إنسان أن يقرأه ويستمر في قراءته.

لقد انتقد هذا الكتاب بقوة من قبل برنار لويس وأصبحت وجهة نظره نقطة موجهة لصراع بين الباحثين استمر حتى رحيل إدوارد سعيد هذا الخريف.

كان الصراع بين الرجلين شخصيًا ولكنه كان أيضًا صراعًا مبدئيًا لأن كلا منهما يمثل وجهة متعارضة لمقاربة الدراسة العلمية .

سأظل مصرًا أن كليهما كان علميًا ولكن المضمون عند د. إدوارد سعيد الذي يجادل فيه كتاب الاستشراق حول التناقض بين حياة الناس المولودين في الشرق والذين عاشوا نمط حياة شرقية فعلاً من جهة وبين متطلبات وإبداع حياة عاشها الناس عن الشرق في عقول كثير من المستشرقين كانت أيضًا ذات أهمية مماثلة لأنَّها نبهت العديد لحقيقة أساسية وهي أن هناك دومًا حدود بين الباحث من جهة. وكيف ولماذا يجرون أبحاثهم على الآخرين.

كان إدوارد سعيد نفسه ضحية لهذه النزعة (الانتماء)، في الطبعة الأولى لكتابه الاستشراق، وبحكمة وجد السياق لتصحيح بعضًا من النتائج المتوالدة عن النقد الذي واجهه في مقدمة الطبعة الثانية عام ١٩٧٩ مشيرًا إلى إرادته وقدرته للسير إلى الأمام بثبات منقحًا وجهة نظره.

الآن وبعد رحيله فإنَّنا نحن الذين تركنا وراءه يمكن أن نظهر احترامنا لـِ جهده بارتباطنا بالضبط لمقولة:

لاشيء دائم، وكل شيء قابل للتغيير وهذا ينطبق على أفكارنا الذهنية أيضًا إن أي جهد يقدم لحياة الإنسان بشكل عام أو عبر التفكير العقلي يتضمن تهديدًا للعقل الإنساني، كم يستطيع الإنسان أن يسهم بهذا وكان قد أثبت ذلك بشكل مقنع من قبل إدوارد سعيد خلال حياته.

ووضع مثالاً يحتذى به من قبلنا كلنا رغم أننا لانستطيع جميعًا أن نصل إلى ذاك المستوى الذي وصله إدوارد سعيد.